المعتصم بالله المؤمن

الميّت... ... الحيّ



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْم

وَبِهِ نَسْتَعِيْن

المَيِّتُ...

...الحَيّ!

تأليف:

المعتصم بالله المؤمن

"" كيف وصلتُ إلى هنا؟!.. هذه قصّةٌ طويلةٌ تحتاج لأذنين مصغيتينٍ وقلبٍ واعٍ فإن كنت تحويهما فأرهف سمعك!

بدأ ذلك أوّل ما بدأ يوم كنت أنا وصديقَيّ جون وتِيم القبطان قد ركبنا من إنجلترا على متن سفينة ركّابٍ فاخرةٍ بعد أن أحكمنا خطّةً للسّطو على أحد ركّابها الأثرياء أثناء الرحلة.. لم يكن من المخطّط أن نبدأ ذلك من بداية الرحلة ولذا كان علينا أن نمضي أيام ربيعٍ جميلة!

كان نسيم البحر يداعب أنوفنا وأشعة الشمس اللّطيفة تغمرنا بجميل عطفها ومظاهر ثراء ضحيّتنا -أو زبوننا كما كنّا نسميه- تمتّع عيوننا وتغري قلوبنا وتسيل لعابنا وتغرقنا في أحلام اليقظة الوردية..!

كانت السّفينة على طولها مزدحمةً بالرّكاب من الطّبقة الرّفيعة الذين يتباهون ويقضون أوقاتهم في التّسالي والمطاعم ولكن ما لفت نظري من بين الركاب هو ذلك الشاب الأشقر الذي كان يجلس بثيابه الفاخرة ومظهره المحترم لوحده طيلة النّهار بعيداً عن الشبّان والشّابات وخالياً بالنّظر إلى البحر والسّماوات..

وكرّت الأيام وهو على هذا المنوال؛ لا يكلّ ولا يملّ ممّا ألهب فضولي وأضرمه..

وحدث أن حضرنا في أحد الأيام حفلةً موسيقيّةً في الطابق الأسفل وكانت الأنغام الشجيّة والروائح المدهشة تأخذ بألبابنا إلى درجة أنّني فجأةً أحسست بأصدقائي يضحكون ويتغامزون حولي وعندما رابني ذلك أدركت أنني صدمت كأس العصير بمنديلي وانسكب على ثيابي ملوّناً إياها بصبغته الورديّة فنهضت خجلاً تلطمني نظرات سخريتهم وصعدت إلى السطح متوجهاً إلى الحمّام وهنا لفت نظري ذلك الشاب العشرينيّ الجالس لوحده المنعزل عنّا فانطلقت إليه علّي أشفي غليلي عندما أسمع منطقه وأعرف قصته..

- هالو!(Hello!)

ورفع باصرتَيه السوداوين ليتفحصني بسرعةٍ وهو يجيب:

- هالو..

- أعرّفك على نفسي.. أنا التّاجر جيمس شارل!

- مرحباً..

وأربكني جوابه البارد فتمالكت نفسي وسألته:

- أراك حزيناً يا صديقي.. تقضي الأيام في التّحديق بهذا الأزرق بينما حولك بديع الألوان؟؟

ولم يجب فأردفت:

- لعلّي أستطيع أن أساعدك!

- وكيف تساعدني وأنت تحتضر؟

وصعقني جوابه ولكن قبل أن أجيبه بشيءٍ تنهّد وأجاب:

- أمران يحيّرانني..الأول أنني حزينٌ لأجلك..

- لأجلي؟!

وحرت في أمري ولكنّني قلت في نفسي: لا داعي للغضب على أيّة

حالٍ فمن الواضح أنّه مختلٌّ عقليّاً.. فلطّفت لهجتي وقلت مبتسماً:
- لا بأس عليك.. على أيّة حال ما الثاني؟
- في الواقع يحيّرني أمر ذلك الصائغ الذي تنوي أنت وصديقاك أن تنهباه.. ترى هل يجب عليّ تحذيره أم لا.. هذا ما يزعجني بحق..

وهنا ثارت ثائرتي وعلتني حمرة الغضب وقد سمعت لتوّي ما يهدّد حياتي وسمعتي ويزجّني في السجون فسارعت إليه أمسكه من ياقته وذراعه النحيلة حتى استحكمته ورميته في البحر رغم مقاومته بلا رحمةٍ أو تفكير..

وعلى برودة الماء الذي نالني عندما رميته ثاب إليّ رشدي وأدركت أنّ ما فعلته هو نفسه تهمةٌ فتربّصت بالموج بينما السفينة تجري وقد غطّى هدير المحرك وأصوات الموسيقى صوت استغاثته.. وكاد قلبي يتوقف وهو يسبح ليلحق بالسفينة ولكنّني هدأت بعد أن تأكدتّ أنّ السّفينة قد تجاوزته تاركةً إيّاه لوحده بين كلّ تلك الأمواج..

وتلفتّ يميناً ويساراً متأكّداً محبوراً أن أحداً لم ينتبه إلى ما فعلت فانسللت عائداً إلى الحفلة الموسيقيّة وجلست وأنا ألهث من الغضب محاولاً استعادة هدوءي وظننت فعلاً أنّني نجحت في ذلك و أنّ أحداً لم يلحظ شيئاً غريباً ولكن فاجأني أن سألني أحد أصدقائي مازحاً:
- يبدو أنّك أخطأت الطريق وذهبت إلى المسبح عوضاً عن الحمّام!
فرمقته شزراً فارتبك بينما أجابني آخر:
- يعني أنّه ما كلّ هذا الماء والعرق الذي على جبينك وثيابك؟.. تبدو

وكأنّك خرجت من المسبح..
- اقتربت من السّياج ولم أنتبه أنّ الموج هائجٌ قليلاً نتيجة جريان السّفينة..
فعلّق ثالث:
- والعصير؟!.. لا يزال على ثيابك!.. ماذا كنت تفعل يا رجل؟!
وتبادل الثلاثة البسمات المكتومة فنهضت غاضباً وغادرت المسرح ودخلت غرفتي وأوصدتّ بابي وأخذت أفكّر بما حدث.. آلاف الأفكار كانت تدوي في دماغي كالرّعد.. حاولت أن أنام لأهرب من الواقع ولكن..

ترى كيف عرف ذلك المجنون بأمرنا؟.. ولم صارحني بذلك بكلّ سذاجة؟.. هل هو مختلٌّ حقّاً أم هو مشعوذٌ أبله؟.. وماذا؟.. قال أنّني أنا أحتضر ولم يكن يدري أنّه هو الذي كان يحتضر في الواقع!

وضحكت في سري ولكن فاجأني صوت طرقٍ سريعٍ على الباب فرجف قلبي.. ترى هل عرفوا سرّي بهذه السرعة؟!.. وتلكّأت قليلاً ثم أدركت أنها فقط مخاوفي ولكنّني قد ألفت الأنظار إليّ إن لم أتصرف على طبيعتي..

ففتحت الباب متصنعاً عندما تبيّن لي أنه صديقي وشريكي جون فانسحبت البسمة من وجهي إذ أنّها لم تكن ضروريّةً ودخلنا الغرفة وأغلقت الباب عندما قال لي بأسىً:
- تغيّر كلّ شيءٍ جيمس.. تغييرٌ قاتلٌ في الخطة..
- ولم هذا؟!.. ماذا حدث؟
- منذ قليلٍ اكتشفوا اختفاء ابن صاحب السفينة -السيد كارلوت-

الشاب وأمضوا الليل وهم يفتّشون عنه بلا فائدة.. فغضب صاحب السفينة وقرّر إلغاء الرحلة والعودة إلى المرفأ فوراً ليبلغ الشرطة علّهم بإجراءتهم يجدون حلاً لهذا اللغز ..

ويبدو أنّني لم أستطع إخفاء آثار صدمتي فأردف:
- إنّه ذاك الشاب الأشقر الذي يقضي النهار يراقب البحر ولا يلتفت لأحد.. هل عرفته؟
- بالتأكيد.. لقد لفت أنظار الجميع..
- يقول أبوه أن هذا قمّةٌ في الغرابة فهو لا يكلّم أحداً ولا يقترب من أحد كما أنّه يحمل قلباً طيّباً فكيف يحمل له أحدٌ العداء هكذا؟!
- كان يبدو يائساً من الحياة.. ربّما انتحر..
- ربّما ولكن هذا يعني أنه قد فاتتنا الفرصة وضاع كلّ جهدنا سدىً.. آهٍ.. لو كنّا نعلم!.. لكنّا استعجلنا في الخطّة قليلاً على الأقل..

فزفرت زفرة غضبٍ وقلت:
- ليس عندما تكون تكلّم العقل المدبّر!.. على أيٍّ لن نصل الميناء قبل ساعتين أو ثلاثةٍ بهذه السرعة.. عندنا فرصة!
- وماذا ستفعل؟
- لن أقول لك بل سأريك!.. كلّ ما عليك أن تحتفظ بالمجوهرات بين أمتعتك..
- أحتفظ بها؟!.. وماذا لو أنّ الشرطة فتّشتنا؟!.. هذا قمّةٌ في التّهوّر والجنون!
- إذاً لن تشاركني أنت أو تيم..
- طبعاً لا!.. أتظنّنا مجانين مثلك؟!
- إذاً الغنائم لي وحدي!

- أجل السجن لك وحدك.. أجل!

وخرج جون ضاحكاً ساخراً بينما شرعت في تنفيذ خطتي الخبيثة فوراً.. الآن ازدادت أسباب طمعي.. سأثبت لجون أن العقل أقوى من الجانّ والمجانين على حدٍّ سواء ولَكَم سيغتاظ عندما يراني ثريّاً في قصري بعد أن أبني من غنائمي تجارةً رابحةً كما كنت أحلم دائماً!

كان عامل المفاجأة في خطّتي الجديدة ليس غفلتهم بل شدة تحفّزهم فهم لن يتوقّعوا على أيّة حال أن يثير صاحب المشاكل مشكلةً بهذه الوقاحة ولكنّه شيطانٌ بما فيه الكفاية ليفعل!

وبعد ساعتين عدتّ من غرفة ضحيّتي العجوز المشدوهة والمشغولة مع الآخرين بعد أن كانت الخطّة قد أقفلت وأقفلت القضيّة معها وقد اعتنيت بإخفاء غنائمي باتقانٍ في حقيبتي بعد أن تركت علب المجوهرات فارغةً ولكن مغلقةً وكأنّ أحداً لم يفتحها فلم ينتبه حتّى صاحب المجوهرات إلى اختفائهم في غمرة قصّة اختفاء ذلك الشاب!

ووصلنا الميناء وأخذت الشّرطة ساحتها في التّفتيش و التّحقيق والسّؤال الدّقيق حتّى مللت وملّ الراكبون وتمنّوا جميعاً أنهم بقوا في بيوتهم سئمين عوضاً عن هذا الحال المحرج!

ولكن يا لأسف الشرطة.. ما من دليلٍ ولا متّهم!.. فهم لم يبلغوا عن اختفاء المجوهرات أصلاً حتّى يلفت انتباههم وجودها معي واضطرّوا أخيراً إلى الإفراج عنّا..

وما إن وصلت إلى برّ الأمان حتّى أخفيتها في مكانٍ أمينٍ ولبثت قليلاً حتى لا أثير الشبهات حولي ثم استقللت طائرةً متجهةٍ إلى أمريكا وودّعت أوروبا لأنساها بذكرياتها ومن فيها وأحلام الثراء والمجد تدغدغ خواطري..!

خمسة سنواتٍ كانت قد مضت على هذا عندما كنّا في فيلتنا الفارهة أنا وزوجتي الشابّة عندما تدلّلت عليّ بغنجٍ ورغبت أن تزور أوروبا فوافقت على مضضٍ بعد أن راسلت أصدقائي الموثوقين وتأكدتّ أنّ الوضع بالنسبة إليّ آمنٌ هناك

فركبنا الطائرة ونزلنا مطار باريس وبدأت سياحتنا في أنحاء أوروبا من باريس وبرج إيفل إلى إنجلترا وقصر باكنغهام ركوباً بالبحر إلى إيطاليا وروما في باخرةٍ كبيرةٍ فارهة.. وهنا كانت القصّة؛ في باخرةٍ كبيرةٍ فارهة..

على الرغم من أنّني تقصّدت الركوب في باخرةٍ مختلفةٌ من كلّ المقاييس عن تلك التي كانت قبل خمس سنين حتّى لا أعود إلى مسرح الجريمة كما يقولون إلى درجة أنّ زوجتي ثارت حفيظتها وغلى فضولها ولكنّي قلت لها بمرحٍ:
- منذ أن تعارفنا وأنا أقول لك أنّني رجلٌ من أغرب طراز وقد وافقتي.. عليك أن تتحمّلي!

فضحكت وأمسكت بيدي حتى صعدنا السفينة وهي تقول لي:
- على الأقل إن ذوقك الغريب الطراز أثمر ثمرةً حلوة.. فهذه السفينة الضخمة مدهشة!

فألقيت لها بسمة تفاخرٍ عندما سمعت:
- أهلاً بك يا سيد شارل!.. إن لم أكن مخطئاً..

والتفتّ لأرى وجهاً مألوفاً لدرجةٍ مزعجة!.. إنّه مالك السفينة السيد كارلوت ويا لهذه الذاكرة القوية التي له!.. ومن ناحيةٍ أخرى يا لهذا الحظ الذي له؛ إذ ازدهرت مهنته خلال الخمس سنواتٍ الماضية إلى هذه الدرجة فصارت سفينته من أفخر السفن في البلاد!
وبطبيعة الحال أجبت:
- أهلاً.. أهلاً.. سيد كارلوت!.. أحببت أن أعيد ذكرى الرحلات البحريّة في سفينتكم ثانيةً!
وهنا شهقت زوجتي قائلةً:
- أوه!.. لذلك كنت تبحث عن هذه السفينة بالذات!

وتبادلنا النظرات.. على الرغم من أنها فهمت الموضوع بالعكس إلا أنّ المهم أنّني ارتحت من فضولها!.. وصعدنا الدرّج وأنا ساهمٌ تتخبّط الأفكار في رأسي.. ترى لو كان يعلم ما فعلته بابنه أكان سيحيّيني بهذه البشاشة أم أنّه كان.... ؟!

وامتلأ صدري بشعورٍ غريبٍ بذلت جهدي في كتمه ولكنّه عندما وصلنا سطح السفينة صار أقوى وأقوى لدرجة أنّني لم أعد أجد طريقةً للخلاص منه إلّا...

إلّا بالضحك!.. الضّحك الهيستيري بالأحرى!.. وأخذت أقهقه بجنونٍ لفت نظرات الجميع المستغربة إليّ وشعرت زوجتي بالخجل الشديد فبذلت جهدها في تهدئتي وصرت أسمعها تقول لي من بين

ضحكاتي :
- أرجوكَ يا جيمس!.. ماذا حدث لك؟.. حاول أن تهدأ.. أرجوك!

ولكن ما من فائدةٍ؛ كلما حاولت كانت نوبةٌ أخرى تعتريني.. فأخذتني زوجتي إلى زاويةٍ فارغةٍ في السفينة وأحضرت لي بعض الماء ومرّت دقائق قبل أن أهدأ رويداً رويداً مع شرب الماء.. فهربت بنظري من عينيها وهي تقول لي:
- عجيبٌ!.. ترى ماذا حدث لك يا عزيزي؟.. ماذا يجب أن نسمي هذا؟
ولم أجبها بلساني ولكنّني أجبتها بقلبي:
- لو عرفتِ السبب لبطل العجب!

على أيّة حال من كان يظنّ أنّ الضّحك قد يستعمل لغير السعادة.. ولكنّ الحقيقة أنّ الإنسان قد يبكي عند الفرح ويضحك عند الحزن!
ومضينا إلى غرفتنا وقد حاولنا أن نتجاهل ما حدث ومضت الأيام على طبيعتها وقد قضينا أحلى الأوقات على ظهر تلك السفينة الكبيرة المتنوعة القاعات..

ولفت نظري أنّ معظم الطّاقم القديم لا زال موجوداً ولكنّ الجميع كان بشوشاً معي.. لحسن الحظ أن سمعتي قد رفعت عنّي كلّ الشبهات ولكنّ شيئاً واحداً كان يزعجني كل ليلةٍ؛ أنّني في أحد الأيام استيقظت ومضيت إلى السّطح لأفطر مع أصدقائي عندما.. عندما لاح لي شابٌّ جالسٌ عند السّياج..

كان شعره أشقر وعيناه سوداوان وعلى الفور عرفته وعندما أردتّ أن أرميه إلى البحر ثانيةً انتابتني نوبة ضحكٍ أخرى ونظر الجميع

إليّ بغضبٍ وأشاروا إليّ بالأصابع وفجأةً ظهر لي السّيد كارلوت وهو يضحك بمكرٍ.. وكان معه رجال الشرطة الذين اقتادوني بفظاظةٍ فكرهتني زوجتي ونفرت منّي وهي تقول:

- لو كنت أعرف لما ضحكت لك يوماً!

فلحقتها وأنا أقول لها:

- لكنّك قلتي لي منذ البداية أنّك أحببتني لشخصي.. لشخصي!..

ووعدتني أن تكوني معي على الحلوة والمرّة..!

وركضت خلفها حتّى أمريكا وركضت حتّى لم أعد أراها ولكنّني سمعتها تقول لي فجأة:

- ومن قال أنّني غيّرت؟!.. لا زلت أحبّك كما كنت يا جيمس!

فوقفت مستغرباً عندما... عندما فتحت عيني فجأةً لأرى وجه زوجتي وهي تقول لي ضاحكةً:

- وأخيراً استيقظت!.. ما هذه الكابوس الفظيع الذي كنت تعيشه؟!

- فظيع.. نعم.. نعم.. إنه فظيع!.. أكثر ممّا تتصورين..

- إلى هذه الدرجة أنت خائفٌ من أن أتركك؟!

وأخذت تضحك برضاً أرضى غرورها بينما هربت بنظري وأخذت أمسح عرقي وألتقط أنفاسي وأرتاح لفكرة أنّها مجرد مخاوف وهلاوس لا مكان لها من الحقيقة...

هذا المشهد وأمثاله كان يتكرّر كلّ ليلةٍ.. أحياناً تدري زوجتي وأحياناً لا تدري.. ولكنّها بشكلٍ عام كوّنت فكرةً واضحةً عن أنّ الرّحل البحرية تشكّل عندي عقدةً ما..

أمّا في الواقع فقد مرّ كلّ شيءٍ على أحسن ما يرام ووصلنا إيطاليا التي كانت بالنسبة إليّ برّ الأمان فودّعنا أصدقاءنا وتوجّهنا أنا وزوجتي التي كانت تمسك بيدي نحو سّلم النزول ولكنّنا لم نستطع النزول لأنّ الدّرج كان مشغولاً باثنين من البحّارة كانا يمسكان بكرسيٍّ متحرّكٍ ويصعدان به الدّرج حتى وضعاه أمامنا ونزلا ليحضرا بقيّة الأغراض..عندما...

عندما التقت عيناي بعيني صاحب الكرسيّ السوداوين.. نعم.. كانتا نفس العينين.. والشعر الأشقر.. إنّه نفسه!

وأحسست برجفةٍ إجباريّةٍ تسري في عروقي.. ربّما كثرة تلك الكوابيس هي التي جعلتني بذلك التّحفّز. ولم أعد أرى سواه أمامي حتّى قلت بصوتٍ خفيضّ:

- نجوتَ؟!.. كيف نجوتَ؟

فابتسم وردّ عليّ السؤال مغضباً:

- متَّ!.. كيف متَّ؟

فرمقته بنظراتي قبل أن يجيبني:

- أنجاني الذي أخبرني بموتك.. أحيتني اليد التي أماتتك!

وامتلأ صدري بالغضب فصرخت بدون تفكير:

- إذا لم تتوقف عن قول هذه الكلمات فسأجعلك تفهم هذه المرّة ما يعنيه الموت!

ففتح عينيه متفاجئاً وظننت أنّي أصبت منه مقتلاً ولكنّني فجعت

بأن كيدي عاد في نحري عندما عاد إليّ شعوري وأنا أسمع صوت باب الحجرة التي في جواري ينفتح بقوةٍ وظهر أمامي السّيد كارلوت وزوجته وقد علته حمرة الغضب فأطلق عليّ نظرات حقدٍ وهو يزمجر:
- إذاً كنت أنت من رماه أيّها اللعين!.. عاد المجرم في النّهاية إلى مسرح جريمته!..عاد!
ونادى على البحارة:
- أحضروا الشرطة بسرعة!
وحاول ابنه أن يقول:
- أبي.. توقف أرجوك!

ولكنّه لم يسمعه أصلاً بينما قالت أمّ الشاب السيدة كارلوت:
- كان علينا أن نعلم!.. لا بدّ أنّه هو من سرق الصّائغ أيضاً.. وإلّا ما الذي يفسّر ثراءه المفاجئ؟!

وضاقت الدّنيا حولي ولم أجد مفرّاً منهم إلا بأن ألقي نفسي إلى البحر علّي أسبح بعيداً قبل مجيء الشرطة فركضت نحو السّياج عندما شعرت بذراعٍ تنحلّ عن ذراعي فالتفتّ لأرى زوجتي التي كانت تنظر إليّ نظراتٍ شاحبةً وقد ذهب بريق عينيها الجميل واصفرّ وجهها فوقفت مصدوماً بخسارتي أعزّ شخصٍ على قلبي ولكنّ الأوان كان قد فات وقلبها كان قد تحطّم!

وحاولت أن تقول شيئاً عندما تحوّلت الكلمات إلى دموعٍ وحشرجةٍ فغطّت وجهها بيديها وركضت داخل السّفينة وركضت خلفها خطوتين قبل أن يمسك بي البحّارة و...

.. وتساقطت دموعي على أرض الزنزانة وأنا أكرّر هذا المشهد في ذاكرتي للمرّة المئة.. عشرين سنةً كانت ثمن تلك اللحظات.. عشرين سنةً حكموا عليّ لمحاولتي قتله.. آآآآه.. آآه!

لحسن حظّي أنّهم لم يجدوا دليلاً على سرقتي للصّائغ فبما أنّني أنشأت تجارةً فقد أبعدت الشكوك عنّي.. ولكن عشرين سنةً.. أين تصرف؟؟.. وأخذت بالبكاء والنّحيب عندما..
- أحبك.. أحبك.. سأبقى أحبك!
زميلي المعتوه في الزنزانة قفز عليّ وصار يغنّي هذه الجملة كعادته.. فرميته عنّي وزجرته فتجرّع جرعةً أخرى من سُمّه أو خمرته كما يسمّيها وعاد للغناء:
- أحبك.. أحبك.. سأبقى أحبك!

وعدت لأفكاري السوداء.. وعليّ أن أدفع كلّ هذه السنوات من شبابي الغالي شئت أم أبيت.. وللمرّة الخمسين بعد المئة أجريت العملية الحسابيّة:
واحد وثلاثون + عشرون = واحدٌ وخمسون سنةً.. واحدٌ وخمسون سيكون عمري عندما تنتهي محكوميّتي.... آآآآه.. آآآآه..!
وعدت للنحيب عندما شعرت بسائلٍ على وجهي فرفعت رأسي لأراه يرشقني بسمّه وهو يضحك ويغنّي:
- أحبك..أحبك.. سأبقى أحبك!

وعدت للشجار معه حتى تركني وذهب إلى الزاوية وهو يغنّي ويضحك كالمجانين.. لو لم أكن أراه عندما يذهب عنه سكره ويعود

عاقلاً لجزمت بأنّه مخبول!

ومرّت الأيام المقيتة المميتة وأنا على هذه الحال وكسرةٌ من هنا وذلّةٌ من هناك كنّ يمزقن كبريائي و...
وحبّي المكسور.. زوجتي ونصف حياتي.. عودي!..لم أرتشف من حبّك إلّا أشهرٍ كانت كالحلم.. أين حبّك لي؟.. أين وعدك؟.. لم أسمع عنك شيئاً من لحظتها.. لم تحضري حتّى محاكمتي.. آآه.. آآه..
وكالعادة:
- أحبك.. أحبك.. سأبقى أحبك!

فصرخت به:
- تحبّ؟!.. من هذا الذي يستحقّ أن تحبّه؟!.. إذا كان لا بدّ وأن تحبّ فأحبّ من لا يمكن أن يكرهك!
- ومن أين هذا؟!.. دلّني عليه!.. أنت كن كذلك لكن أنا.. أحبك..أحبك سأبقى أحبك!

ورددت بصوتي المتحشرج:
- يا عدوّ نفسه.. إلى متى ستبقى تقتل نفسك بهذا السمّ؟!.. ألّا تشعر أنّها لذّة ساعة وعذاب العمر؟!.. ألا تعلم كم ستسبب لك هذه الخمرة من أمراض وموتٍ مبكّر وتصرفاتٍ حمقاء؟!.. لماذا أنت أعمى؟!..
لماذا لا تنظر أبعد من أنفك؟!
- أحبك..أحبك..سأبقى أحبك!

واخذ يقهقه بغباء فطمرت وجهي بين ركبتي ونفسي تقول لي:
- هل كنت أنت أحسن؟!.. أم أنّك كنت أعمىً مثله؟!.. وإذاً هل

تستحقّ لذّة خمس سنوات عذاب عشرين سنةً؟!.. هل هذه تساوي هذه أم أنّها تجارةٌ خاسرة؟

ورددت بحرقةٍ:
- بل خاسرةٌ وخاسرةٌ.. وألف خاسرة.. خااااااسرة...
وأخذني البكاء.. أعيدوا إليّ شبابي.. أعيدوه!.. ماذا سيكون بإمكاني فعله لبناء حياتي وأنا في الخمسين؟!.. ماذا؟!
ولكن ما من مجيب إلّا:
- أحبّك.. أحبك.. سأبقى أحبك!

وأصبت بالهيستريا من سماع هذه الكلمات فانقضضت على القضبان أنتظر السجّان وأنا أكاد أضرب رأسي بهم لأتخلص من جنونه وضحكاته.. وما إن جاء السجّان من أجل الطعام حتى قلت:
- أرجوك يا سيدي.. انقلني إلى زنزانةٍ أخرى لم أعد استطيع احتمال هذا المجنون..
- كلّكم على هذه الحال.. ألف مرةٍ قلت لكم هنا سجن وليس فندق!
- ولكن هذا لا سجن ولا فندق.. إنّه مشفى مجانين!
- بل مستشفى نادمين!

وانتقل إلى الزنزانة التالية وهو يضحك ساخراً بينما ضربت الأرض بقدمي وقلت وأنا أعضّ على أسناني:
- بل مستمرض لا مستشفى!

وعدت إلى زاويتي والعذاب يعتصرني عندما بدأ المجنون بالترنّح و.. سقط فوقي فانفجرت غاضباً وقال لي صوتٌ في داخلي:

- إذا لم يفهم بالكلام فاجعله ينقلك بالقوّة!

فهجمت على زميلي وكسّرت زجاجاته وبدأت أضربه وسرعان ما جاء السجّان على صوت التكسير ورآني فأخذ دوره في ضربي وتعنيفي.. ومرةً على مرةٍ نقلني في النهاية إلى زنزانةٍ فرديّةٍ على سبيل العقاب ولم يكن يدري أنّها أكبر رحمةٍ بالنسبة إليّ..!

ورماني في الزنزانة وأغلق الباب بعنفٍ وتسرّبت رائحة العفونة إلى منخري ورائحةٌ أخرى مقززةٌ جداً.. وتحاملت على نفسي رغم آلامي ونهضت مستطلعاً لأرى سجني أو قبري بالأحرى..
غرفةٌ سوداء ضيّقة ونافذةٌ صغيرة بالكاد يمرّ ضوء السّماء من خلالها و..

ورائحة نتنٍ شديدةٍ تسيطر على المكان.. ترى ما هذا؟.. كان عليّ أن أنتظر ضوء الصباح لأستطيع الرؤية.. وعندما بدأت الشمس تنشر أشعتها أستطعت رؤيته وليتني لم أره!

يبدو أنّه لم يكن قبري لوحدي.. إذ كان هناك جرذٌ قذرٌ يتحلّل في الزاوية والديدان تغلي والرائحة تقتلني.. فطرقت باب الزنزانة بعنفٍ لأعترض على هذه اللّا إنسانيّة فهذه الظروف كفيلةٌ بقتلي لا بتأديبي فقط.. وكلّت يدي ولم يسمعني وكيف يسمعني وأنا وحدي بعيداً في هذا الوقت المبكر؟
وانتظرت وقت الغداء بفارغ الصبر وأنا ألصق نفسي بالباب مبتعداً عنه قدر الإمكان وأهرب بنظري وأنفي من هذا القذر.. وما إن جاء حتّى أريته بعينيه فنقلني على مضضٍ وهو يتأفأف إلى الزّنزانة

المجاورة ولم تكن أفضل بكثيرٍ ولكن لا بأس..

وبدأت أيام صبري المريرة لوحدي.. رغم أنّني هربت من زميلي المعتوه وكلماته الرتيبة إلا أنّ الوحدة بين الحشرات والفئران مؤلمةٌ أيضاً..

وأخذتني الأفكار.. أصبحت لوحدي في علبةٍ قذرةٍ مغلقةٍ مليئة بالدّود والحشرات.. وتخلّت عنّي زوجتي التي أحبّها وهي بالتأكيد ستجد لها بعلاً آخر.. وتركت فيلتي الفارهة وأثاثي الفاخر ووسائدي الحريريّة المريحة وحديقتي الملوّنة بكل أزهارها التي أمضيت الشهور بانتظار ينعها.. تركتها كلّها لكي أنام على.. على أرضٍ قذرةٍ قاسية وأناظر جدران منخورةً وأسامر حشراتٍ بغيضة.. آآه.. آآه! ترى ما الذي يختلف هذا عن الموت؟..

وعند هذه الكلمة شعرت بغصّةٍ شديدةٍ مزّقتني.. أليس هذا ما كان يقوله الشاب الأشقر كارلوت؟!.. أهذا ما كان يعنيه بالاحتضار والموت؟!.. أهذا.....؟!.. وعلقت الكلمات في حلقي حتى شعرت كأنّ فيه حجر.. "نعم".. هذا هو الجواب.. نعم!.. لقد بتّ الآن ميّتاً وأنا حي.. وصرت أصرخ كالمجنون:
-أنا الآن ميّتٌ حي....!

وسقطت على الأرض أبكي وأبكي.. ولكن ماذا أجدى البكاء؟!.. فعلى عذابي تبخترت الأيام الباهتة واللّيالي القاحلة.. حتّى حدث في أحد اللّيالي أن رمى لي مع الطعام مظروفاً.. عرفت ذلك بتلمّسه طبعاً لأنّه ما من ضوء في ذلك اللّيل البهيم..

فغمرتني سعادةٌ.. هناك من تذكّرني أخيراً!.. لكن ترى من؟.. من حبيبي الذي تذكرني؟.. وماذا تحوي هذه الرسالة؟.. خيرٌ أم شر؟.. سعادةٌ أم حزن؟.. مواساةٌ أم عتاب؟

وعلى الرغم من أنّني بالعادة أنتظر الظّلام كي تغفى عيني لكنّني هذه المرّة كنت أغلي من التّفاعل والتلهّف وأدور في الغرفة أنتظر الصباح بفارغ الصبر.. متى يا شمس؟.. متى؟.. وبدل من أن تجيبني الشمس كانت تجيبني الرّياح... فمممممم... فمممم..

وكانت هذه من أطول لياليّ وأعنتها ولكنّ الزمن لا يتوقّف عند أحد وبثقت الشمس أشعتها أخيراً فالتصقت بحائط النافذة أتلقّط الضوء حتى أقرأ.. وأخيراً على المظروف قرأت:
- جاك كارلوت..
وأخذتني الصدمة الخانقة وأخذت بخناقي حتى أمسكت برقبتي.. أهذا الذي كنت أبني عليه قصور أحلامي؟!.. أهذا الذي سهرت اللّيل معذّباً لأجله؟!.. غريمي الذي سجنت بسببه.. غريمي..؟؟

ورميت الرسالة على الأرض وأخذت أدوسها بفظاظةٍ وجلست في الزاوية أتميّز من الغيظ حتّى أشرقت الشمس وأضاء المكان..
وأخذت أحدّق بتلك القصاصة البيضاء أو التي كانت بيضاء قبل أن أدوسها وأنكّل بها وكأنّها هي الملومة..

لكن ترى ماذا تحوي؟.. شماتةٌ وتنكيل؟.. وتذكّرت اللّحظة الأخيرة التي رأيته فيها وهو يردّد:
- أبي.. توقّف أرجوك..

وهنا اقتحم دماغي سؤال؛ ما دام حياً عاقلاً وبذاكرةٍ جيّدةٍ فلم لم يخبر والده عن هوية الفاعل من زمان؟!.. ولم حاول أن يوقفه عندما عرف بي؟!.. أليس هذان السّؤالان جديران بالطرح؟!.. تراه ليس إنساناً سيئاً كما أخذت عنه من فكرة؟؟.. تراه....؟

ولم أسأل بل تناولت الرسالة التعيسة فوراً وفتحتها.. ودارت الدنيا من حولي..يا ليتني لم أفتحها!

'إلى غريمي الميّت:

لا بدّ أنّ سبب تسميتي إيّاك بذلك صار واضحاً..

وخاصةً لو أخبرتك أن العشرين سنةً تعقبها المشنقة'

واسودّت الورقة في عيني فمزّقتها كلّ ممزق.. من أين جاء بالمشنقة أيضاً؟!.. لقد سمعت حكم القاضي بأذني ولا كان فيه مشنقة ولا إعدام.. لا زلت أظنّ أنّه يهذي..

وارتحت لهذه الفكرة قبل أن يقول لي صوتٌ في داخلي:

- هذا ما قلته قبل خمس سنوات ولكن ظهر في النهاية أنّه كان محقّاً.. لا بدّ أن هذا الرجل يعرف عن مستقبلك..

وضربت وجهي لهذه الفكرة.. إذا كان هذا صحيحاً فلا بدّ أن تدور الدوائر وأصل إلى حبل المشنقة.. ولكن لماذا يخبرني؟!.. أيريد أن يقتلني وينكّل بي؟!.. ألا يكفيني السّجن حتى أنتقل إلى المشنقة؟!.. آهٍ كيف أضعت نفسي..

ورميت نفسي على الأرض أتلوّى من هول الفكرة ثم قلت في نفسي:

- إذا كان هذا صحيحاً.. فآخر أيامي هي هذه التي في سجن.. لم يعد هناك أيّ داعٍ لانتظار العشرين سنةً حتى تنقضي.. بل على هذه الحال ليتها لا تنقضي..!

وارتميت النهار أحدّق بالنافذة ساهماً.. لم يعد هناك ما أحلم به أو أنتظره.. وصار السجن رحمةً مقارنةً بالفضيحة والمشنقة والقبر..!

وفي اليوم التالي فاجأني أن أعطاني السّجان رسالةً أخرى فترددت في البداية ثمّ ما لبثت أن فتحتها:

' إلى غريمي الميّت:
لا بدّ أنّ السّجن صار رحمةً بالنسبة إليك بعد خبر البارحة ولكن العشرين سنةً ستنقضي وستصل في النهاية!'

ومجدّداً مزّقت الرسالة بغضبٍ وغيظٍ وصرخت:
- ماذا يريد منّي؟.. لماذا يلعب بأعصابي؟.. لماذا؟؟؟
وجمعت قطع الورق ورميتها من النافذة قائلاً:
- ليذهب صاحبك إلى الجحيم!.. ليذهب!

وجلست ألهث من الغضب وأنا أضرب الأرض والجدار بما أوتيت من قوةٍ حتى آلمتني عظامي.. وهكذا صرت أدور في الغرفة علّي أفرغ طاقة الغضب تلك..

وفي اليوم التالي كنت أنتظر الغداء هذه المرّة لأرى إن كانت ستستمرّ هذه المهزلة ولكنّه لم يعطني شيئاً حتّى اليوم التالي وكنت

قد هدأت نسبيّاً.. وقد عزمت على رمي الرّسالة بدون قراءتها ولكنّ وحدتي ومللي جعلتني أتمسّك بالحدث الوحيد الذي يجري في أيامي الرتيبة..

وفتحتها أخيراً وأنا شديد التّحفّز:
' إلى غريمي الميّت:
 كنت أتساءل إن كان شعورك الآن مثل شعورك بعد سنواتٍ في القبر إذا ما قالوا لك أنك بعد عشرين ألف سنةٍ -مثلاً- ستنتهي محكوميّة القبر وتذهب إلى الجحيم الذي ستذوق فيه من العذاب الأليم ما لم يذقه مخلوق وستكون أهون وأذلّ من جرو.. ترى هل ستتمنى الخروج من بيت النتن والدّود (القبر) بعدها أم أنّك ستتمنى لو تبقى فيه الأبد السرمد؟'

وأنزلت الورقة مصدوماً.. أظنني فهمت ما يرمي إليه الآن من كل تلك الرسائل.. لم أكن أظنّ أنّ ميول الفتى دينيّة.. هذا ما يفسر كلّ تصرفاته الغريبة الأطوار!.. لم كان يعتزلنا ويقضي الوقت في التحديق بخلق اللّه.. ومن أين يعرف المستقبل.. ولم حاول أن يوقف أباه مسامحاً إياي..!

وضحكت في سرّي.. على الأقل شُفي غليلي قبل أن أموت وفهمت أنّه ليس مخبولاً ولا مشعوذاً..!

ثمّ ذهبت البسمة عن وجهي عندما ذكرت الموت وأنا أقول:
- لكنّه محقّ.. إنّ مسألة القبر والجحيم لا تختلف عن مسألة السّجن والمشنقة.. لقد صدّقت بذهابي إلى المشنقة لمجرد أنّه كتبها كلمتين

على ورقٍ فقنعت بالسجن وامتلأت خوفاً ويأساً.. فلم لا أصدّق بوجود الجحيم مع أدلّةٍ تملأ الأكوان؟!

وهذه المرّة لم أغضب بل أعجبتني فكرته في أن أنتحي هذا المنحى لأشغل وقتي الطويل وخاصةً وأنّي لن أخسر شيئاً!

فاستلقيت أنظر إلى النافذة وأنا ساهمٌ في التفكّر والتفكير في دقائق هذا الكون الكبير.. وصار النّمل الصغير الذي كنت أتسلّى بتقتيله موضوعاً لساعاتٍ من التفكير!.. وتلك السماء الكبيرة التي مضى عليّ أيّامٌ وأنا أحدّق بجزءٍ منها ماذا جمعت عنها من معلوماتٍ بعد كل هذا التحديق؟!

والمسألة الأكثر تعقيداً على الإطلاق هي لم أنا حي؟.. وأين كنت عندما قضي لي بالحياة؟.. ولماذا مضى عليّ الأزل لا تعني لي كلمة حياة شيئاً والآن لمجرد أنّي عشت هذه السنوات صارت الحياة تعني لي كلّ شيء وصارت أغلى ما أملك لدرجة أنّي لم أعد أفهم ما يعنيه الموت الذي نشأت فيه وقضيت فيه الأزل؟!..

آلاف الأسئلة التي تنتظرني أنا الإنسان لأسألها بينما كنت غارقاً في لذّاتٍ ستكون باطلةٍ بعد سنواتٍ -لا محالة- زائلةً كما عاينت عندما نزعت من حياتي رغماً عنّي وألقيت في هذه العلبة...

وبهذا مضى الوقت وكأنّه لم يكن نفسه الرّتيب الذي كان يمزقني الأيام السابقة!.. وجاء اليوم التالي ووصلتني رسالةٌ جديدةٌ من مراسلي الذي يصغرني بأعوام:

' إلى غريمي الميّت:
لعلّك بعد هذه المقدمات -التي مضى عليها في الواقع أكثر من خمس سنوات- تتساءل من أنا وكيف وصلت إلى هنا..
أعلم أنّك وجميع من ركب سفينة أبي جزمتم بأنّي مختلٌّ عقليّاً أو مريضٌ نفسيّاً ولكن للقصّة شجون..

منذ نعومة أظفاري ومنذ أن فتحت عينيّ على الحياة كنت أعلم أنّي الولد الوحيد المدلّل لوالديّ ذوي الدّخل الماديّ الممتاز وكانا -بحقٍّ- يلبّيان أيّ رغبةً قد يشعران أنّني أرغبها ولذا كان عندي في غرفتي أكوامٌ من الألعاب والقصص والكتب..

نعم.. الكتب.. تلك التي هوست بها فقد كانت القراءة هي هوايتي الأساسيّة بلا منازع وكان هذا يسرّ والديّ ويشرّفهما وخاصةً عندما ملأت غرفة الاستقبال الخاصّة بنا بمختلف الأوسمة والكؤوس الذهبية والشارات التي كنت أستحقّها سواءً في المدرسة أو في المسابقات الثقافيّة الصغرى والكبرى على حدٍّ سواء..

وجاء اليوم الذي شاركت فيها بمسابقةٍ على مستوى البلاد واستعددت بما أوتيت من كتبٍ وذاكرةٍ وشاركت بها وقد كانت أقيمت في المكتبة العامة وأثناء انتظاري لدوري لفت نظري كتابٌ باسم "التّوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث" للعالم الفرنسي "موريس بوكاي" والذي كتبه بعد الاكتشافات التي وجدها في مومياء الفرعون المصريّ رمسيس الثاني..

فعندما كان فخوراً باكتشافاته أخبروه أنّها منذ أكثر من ألف سنةٍ مذكورةٌ في القرآن -وهو الكتاب الذي يزعم المسلمون أنّه هو الكتاب المقدّس الذي أنزله الله العظيم على نبيّه الكريم- على الرغم من أنّه في ذاك الزّمان لم يكن هناك أيّ وسائل حديثة -كالّتي موجودةٌ الآن في عصرنا- لتحقيق هذا الاكتشاف الذي مضى عليه آلاف السّنين!

وهكذا أسلم هذا العالم ونشر هذا الكتاب الذي صار شهيراً في الآفاق وهو يقارن بين الكتب السّماويّة والعلم الحديث ويستخلص من هذا خلاصةً خالصة.. وبعد قراءتي جزءاً منه عدت إلى حسّي عندما قال لي أمين المكتبة أنّه يجب أن أنهض لأنّ دوري قد حان!

وفي اليوم التالي عدت إلى المكتبة خصّيصاً لأشبع نهمتي من هذا الكتاب لأنّني لم أكن أستطيع أبداً أن أبدأ كتاباً بدون أن أكمله..

وهكذا قضيت النّهار بطوله في المكتبة حتى أتممت قراءته وقد نال هذا الكتاب إعجابي وانتباهي كما فعل مع الكثيرين من القرّاء فصرت أتتبّع في المكتبة كتباً ذات مواضيع مشابهةٍ عن الإسلام والمسلمين وأقرأها وحصل وحصلت على نسخةٍ من ترجمة القرآن الكريم..

وبعد أشهرٍ من بداية هذه القصّة عزمت أمري وركبت الحافلة بدون علم والديّ وسافرت عدة أميالٍ حتى وصلت مسجداً حكوا لي عنه.. وهناك وجدت شيخاً طيّباً علّمني أكثر وعرّفني كيفيّة الصلاة.. ومن هنا بدأت قصّتي الحزينة مع والديّ..

فسرعان ما اكتشفوا أمري عندما كنت مرةً أصلي ورابهما ما أفعل.. وأشعل أبي الحرب عندما أخبرته بالقصّة.. وبمختلف الطّرائق حاول أن يغيّر مذهبي بلا فائدةٍ بل كان يغيظه أنّني أزداد تمسّكاً..

وعندما علم أنّني بدأت أحدّث زملائي عن الموضوع وشاع أمري بين أصدقائه نفث الشّيطان في ذهنه فكرةً جهنميّةً.. فأخذني مرّةً إلى سفينته وزعم أنّه يريد منّي المساعدة وبدلاً من ذلك وبمجرد أن أقلعت السّفينة قال لي بخبثٍ:
- اعلم أنّك لن تنزل من على ظهر السّفينة قبل أن تطيعني وتترك مذهبك الفاسد..

وأخذ بالضحك وفعلاً لم أستطع تغيّير هذا الواقع بعد.. إذ أنّه كان يجعل بحّارته يحبسونني في الغرفة عند رسوّ السفينة ويطلقونني إلى السطح عند إقلاعها ..

وهكذا كان ثمن إصراري أن قضيت أكثر من أربع سنواتٍ على ظهر السّفينة وأنا كما رأيتني أقضي النّهار في النّظر إلى بديع خلق اللّه من السّماء والبحر وأصّلي وأسبّح مبتعداً عن مناظر الفساد التي كانت سفن أبي تعجّ بها على الدّوام..

وبما أنّني كنت أبذل جهدي لأصفّي نفسي وأنأى بها عن المكدّرات فقد منّ اللّه عليّ بأنّه صار يريني أحياناً بعض المستقبل..

حتّى جاء اليوم الذي رأيتك في منامي وأنّك تنوي أنت ورفيقاك ما كنتم تنوون.. وكنت محتاراً في حقيقة هذا الحلم ولذا كنت متردداً

في إنذار الصّائغ أو لا..

وعندما كلّمتني على ظهر السّفينة تأكدتّ أنّه كان رؤية لا أضغاث أحلام.. ومن صدمتي وجدت نفسي -وقد تعوّدت البراءة- أصارحك بالأمر بسذاجة ولكنّني عرفت أنّ هذا كان خيراً في النّهاية!

فعندما رميتني عن ظهر السفينة كانت تلك المرّة الأولى التي أخرج فيها منها منذ سنوات وعلى الرّغم من أنّني ظننت نفسي انتهيت إلا أنّني فتحت عينيّ ثانيةً.. ولدهشتي وجدت نفسي في بيت صيّادٍ طيّبٍ أنقذ حياتي بفضل اللّه.. وعندما حاولت أن أنهض لم أستطع..

حاولت مراراً ولكن كانت النّتيجة نفسها؛ سلبيّةً فأخبرني الصّياد أنّه أجرى لي تنفساً اصطناعيّاً طويلاً حتّى فقد الأمل بنجاتي ثمّ وفي اللحظة الأخيرة أبديت حركةً فثابر على التّمرين حتى عادت إليّ أنفاسي بشقّ الأنفس وعدت للحياة..

ولكن كما يبدو لم يسلم دماغي من الضرر وبذا فقدت الإحساس بشقّي الأسفل.. وعندما جاء الصّياد بأبي، فرح في البداية لنجاتي وشكر الصيّاد من كلّ قلبه وكافأه بمكافأةٍ كبيرةٍ.. ولكنّه حزن هو وأمّي عندما علما بمصابي وبذلا ما في وسعهما من طبيبٍ إلى طبيبٍ لمعالجتي ولكن مع الدّماغ المعقّد ما كان للأطباء من مكان..!

وحاول والديّ أن يفهما منّي قصّة وقوعي في البحر فأوهمتهما أنّني حاولت الهرب سباحةً ولكنّهما لم يقتنعا بجوابي مطلقاً حتّى جاء اليوم الذي شفى اللّه به غليلهما وجعلك تنطق بذلك بنفسك!.. ولك

أن تتخيّل مدى التحقيق الذي خضعتُ له بعد ذهاب الشرطة.. مثل:
- ما دمت تعرفه وتذكره فلم كنت تتستّر عليه؟!.. أيّ نوعٍ جديدٍ من الخبل أصابك هذه المرّة؟!
ومن هذا النّوع الكثير..!

ومن ناحيةٍ أخرى كانت إعاقتي بفضل اللّه -على الرغم من الشدّة الشديدة لصعوبتها- في مصلحتي إذ أنّ والديّ خلال الخمس سنواتٍ الماضيّة شعرا بالذنب تجاهي وصارا يراعيان مشاعري ولم يعودا إلى ما كانا عليه من التشّديد والحبس.. وتركاني وأخيراً للطريق الذي اخترته في حياتي..

فاستعدت حريّتي وصرت أذهب إلى المسجد وأعود وأقوم بشعائر ديني بلا مشكلةٍ والحمد للّه الذي منّ عليّ.. ووجدت أنّ فقداني للمشي كان رخيصاً إلى جانب كلّ هذا الخير.. فتيقّنت أن كلّ ما يكتبه اللّه وإن كان يبدو شرّاً مطلقاً فهو خيرٌ مطلق.. فلم أكن لأستفيد من رجليّ على أية حال إذا قضيت عمري على كرسيٍّ في السفينة!

وأنت أيضاً.. أرجو أن تجد الخير في هذا الشرّ الذي تجد نفسك فيه.. فقضاء عشرين سنةً في ظروفك هذه ليس سهلاً أبداً إلا إذا وجدت السّعادة.. وبذا ستكون سعيداً وإن حدقت بالرماديّ كما كنت أنا أحدق بالأزرق وستغدو حينها... حيّاً!'

وهكذا.. انتهت الرسالة الطّويلة ذات الشجون التي كانت السّبب الأول في تغيير منحى حياتي ليس لعشرين سنةً فقط بل إلى الأبد!

وهذا أيضاً لأنّه كان قد أرفقها بكتاب "التّوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث".. فشرعت بقراءة ذلك الكتاب العجيب فوراً..

وبعد كل تلك المقدّمات التي قدّمها لي كارلوت في رسائله -التي أغضبتني تارّاتٍ وأثارتني بشتى الأشكال-؛ نال الكتاب إعجابي.. ودوريّاً صار يرسل إليّ كتباً من هذا النّوع.. وحجراً على حجر عزمت في النهاية حقّاً على أن أغيّر اتجاهي في الحياة..!

وبعد مرور ثلاثة شهور.. أرسل لي أخيراً ورقاً وقلماً فبعثت إليه رسالةً حصدت فيها كلّ مشاعري وأسئلتي وأخبرته فيها بصدق نيّتي فأرسل إليّ أخيراً بناءً على طلبي نسخةً مترجمةً لكتاب الله العزيز القرآن الكريم!

وانقلب جيمس شارل إلى الأبد وطارت روحه في الجنان وهو يقرأ القرآن!.. ولا تستغرب فهذا الشعور حصدته بفضل الله بهذه السرعة مع بداية إيماني وشدة رغبتي وخاصّةً وأن المسلمين الجدد أحسن من الذين ولدوا في الإسلام من هذه الناحية إذ أنّهم لم يتعوّدوا بعد على رؤية هذه العظمة والبهاء!

وبذا لم أعد محتاجاً للزوجة الجميلة والبيت الفاخر والأوسدة المريحة.. لقد صرت سعيداً أينما كنت وكيفما سأكون.. فالحمد لله ربّنا وربّ الكون!

وأيامٌ مضت وأنا أتدرّب على الصلاة كما قرأت عنها خمس مراتٍ في اليوم أو أكثر وفعلاً بعدها شربت روحي من كأس المحبة القديم

وغنّت لربّها:
- أحبك ربّي..أحبك..سأبقى أحبك!

هذا باختصار نتيجة أشهرٍ وسنين.. عشر سنينٍ بالأحرى.. لم تعد اسمها عشر سنين إلا بالاسم.. أمّا في الحقيقة فقد قنعت بعيشتي وأنّي لن أحصل على غيرها مهما فعلت وسعدت بمنحتي حتّى لم أعد أشعر بشدّة السّجن ولا بالعذاب وخاصةً وأنا أحسب كلّ يومٍ بوجلٍ نقصان أيامي الباقية قبل أن أصل إلى المشنقة..

وفي أحد الأيام وبينما كنت أصلّي شعرت أنّ السّجان جاء في غير موعده وفتح الباب قائلاً:
- اخرج!

ولكنّني لم أفعل لأنّني كنت في حرمة الصلاة وتوقعت أن يبدأ بالعنف لأني لم أطعه ولكنه خرج وترك الباب مفتوحاً وعندما أنهيت خرجت من الباب أبحث عنه فوجدته في الممر فقال لي:
- هل جمعت أغراضك؟
- يا سيدي.. تعجبني الزنزانة الفرديّة.. كما عهدتني؛ لن أهدأ إلا إذا وضعتني في واحدةٍ منها!
وواجهني بصفعةٍ وهو يقهقه ثم قال:
- أيّها الأبله!.. اجمع أغراضك والحقني.. هيّا!

فجمعت أغراضي ولحقت به فأخذني إلى مكتب إدارة السّجن فدخلت وأنا متحفّز أنتظر الطّامة التي أتوقّع أن تقع على رأسي..

وما إن فتح الباب حتّى رأيت نائب مدير السجن وهو ضابطٌ أشوس فاعترتني رهبةٌ من منظره الكريه وقد كان يكلّم شخصاً جالساً أمام المكتب عن اليسار.. ولم أكترث بذلك بل وقفت أنتظر مع السّجان..
وضرب السجّان التّحية لقائده قائلاً:
- هذا السّجين رقم ٤٢٣ أمامك.. يا سيدي!
- حسناً.. انصرف!

وخرج السجّان تاركاً إياي في حيرتي فقال النّائب موجهاً الحديث إليّ:
- تمّ نقلك إلى السّجن المركزيّ بناءً على حكم القاضي الأعلى بسجنك عشرين سنةً منذ التاريخ الفلاني وقضيت فيه حتّى الآن عشر سنواتٍ وثلاثة أشهرٍ.. والآن بما أنّك قضيت نصف العقوبة فبموجب قانون الكفالة سيتم إخراجك من السّجن بموجب كفالة السّيد جاك ستيف كارلوت بعد دفعه المبلغ الماليّ المفروض وهو..........

ولم أعد أسمع شيئاً بل التفتّ مصدوماً إلى الشخص الذي على يساري.. الشّخص الجالس على كرسيّه المتحرك..
ولن أقول هذه المرّة أنّه شابٌ أشقر وعيناه سوداوان؛ أولاً لأنّه صار رجلاً كامل الرجولة بعد مضي عشر سنواتٍ وثانياً لأنّ خجلي من نفسي كان أشدّ من أرفع نظري إلى عينيه أو أحدّق في صفاته فوجدتني أحدق إلى الأرض رغماً عنّي..

وسكت الضابط أخيراً بعد قوله:
- بإمكانكما الإنصراف الآن!

كانت الدنيا كلها تساوي صفراً في عيني وأنا أواجه أصعب مواقف حياتي.. الموقف الذي يحسن إليّ فيه غريمي.. يحرّرني فيه من حبسته على كرسيّ الحديد إلى الأبد!
وتصبّبت عرقاً بشكلٍ واضحٍ فقال لي كارلوت ضاحكاً:
- السلام عليكم.. يا أخي الحي!

وصار يضحك لأنه هذه المرّة قال أخي الحيّ وليس غريمي الميّت كالعادة وذلك طبعاً بعد أن حيّاني بتحية الإسلام.. السلام عليكم.. هذه المرة الأولى التي يحييني أحدٌ بهذه التحية ولذلك طبعاً لم يخطر لي الجواب!

ولذلك لم أجد جواباً أفضل لموقفي ذاك من أنّني أمسكت كرسيّه المتحرك بدلاً من الخادم الذي كان بجواره ودفعته خارجاً من الغرفة في خليطٍ من مشاعر الاعتذار والشّكر والنّدم..

وخرجنا أخيراً من كومة الموت الرماديّة المسماة بالسّجن المركزيّ إلى نهر الألوان المسمّى بالحياة..
وهبّت ريح الحريّة على أنفي أطيب من ريح المسك الأذفر وارتاحت عيناي لرؤية المساحات بعد أن كنت محصوراً منذ عشر سنواتٍ بمترين وخمسةٍ وعشرين سم بالطول ومتراً ونصف بالعرض كما قستها ألف ألف مرّة!.. فقلت من كلّ قلبي:
- الحمد لله رب العالمين!

فقال لي كارلوت بعد أن سمعني:
- مهما حمدنا الله فلن نوفّي له فضله.. وللأسف لا نشعر بالنعم إلا من

بعد أن نفقدها..
- صدقت يا صديقي!.. لا يمكن لبحرٍ من الكلمات أن يصف ما يحويه صدري الآن.. وخاصةً وأنني.. لا أعرف كيف أشكرك وأنت الذي.. ساعدتني رغم أني.....

وغصّ صوتي من الخجل بينما أجابني:
- لا عليك.. لقد سامحتك منذ البداية فأنا كما سبق وقلت لك أرى أن ما فعلته بي كان قدراً طيّباً من أقدار ربي.. وما دمتَ كما قلت لي ستبدأ بدايةً جديدة فيسرّني بلا شكٍّ أن أساعدك!

ولامست كلماته شغاف قلبي فأحسست أنّه احتلّ المرتبة الأولى فيه على الفور وصار أعزّ إنسانٍ عليّ على الإطلاق!.. أجل!.. سأبدأ بدايةً جديدةً.. وسأجلب الخير لمن حولي كما جلبت الشرّ ولن أوقف نفسي مثل هذا الموقف المخزي بسبب طمعٍ سخيفٍ بعد اليوم..!

وذهبنا إلى بيته الذي هو بيت أبيه الفاخر وعندما دخلنا رأتني السيدة كارلوت وهي خارجة فقطبت حاجبيها على الفور وقالت له:
- أشتهي أن أعرف سرّك مع هذا الرّجل ولو بدفع مالي كلّه.. مات أبوك وفي قلبه هذه الحرقة!

وابتسم لأمّه قائلاً:
- يا أمّي!.. سبق وقلت لكم منذ عشر سنواتٍ أنه لم تبلغ معرفتي به أكثر من خمسة دقائق بجمع الموقفين الوحيدين اللذين رأيته فيهما!
- وهل هذا تفسيرٌ مرضٍّ لتصرفاتك الغريبة الأطوار معه؟!

وخرجت من الغرفة غاضبةً وهي تبدي لي العداء وقد استيأستْ من أن تسمع جواباً مرضياً ثمّ عادت أدراجها وكأنّها قد تذكّرت شيئاً فجأةً وقالت:

- لا تقل أن جواب هذا السؤال المستعصي هو.. دينك!

وابتسم كارلوت بينما ضربت الأمّ وجهها وخرجت قائلةً:

- كما توقّع أبوك!.. لو أمسكت بكاتب ذلك الكتاب لمزّقته هو وكتابه.. لمزّقته!.. وكما قال أبوك؛ لو ربيت ولداً آخر فلن أدعه يمسك كتاباً.. ولا واحداً!

وغابت عن أعيننا وهي تتمتم.. وابنها يتمتم:

- والله إذا أدخلها الله في رحمته وأسلمت فسأفرِح طرفي المدينة كما أفرحني الله!

ثمّ نادى:

- توبي.. توبي!

وجاء الخادم راكضاً وهو يقول:

- أمرك يا سيدي!

- دلّ ضيفي على الحمّام وأعطه ثياباً مناسبةً وجهّز له غرفةً ليرتاح!

- على الفور!

فشكرت مضيفي ومضيت مع الخادم لأصلح مظهري المذري بعد كلّ تلك السنين التي قضيتها مع الغبار والقذر والحشرات.. وشعرت بأفضل شعور نعيمٍ ألا وهو النّظافة والاستحمام بدون من يراقبني ويعدّ عليّ الثواني ولبست ثياباً أنيقةً عوضاً عن أسمالي وحلقت

ذقني وسوّيت شعري واكتشفت أنّي لم أهرم بعد كما كنت أظن!..
وباختصار لم أصدق عينيّ إذ أنّني قد عدت أنا!

وخرجت إلى غرفةٍ مريحةٍ وتناولت عشاءً لم أكن لأحلم به على الإطلاق وقد كنت فقدت الأمل.. واستلقيت على الريش عوضاً عن الحجر وبصراحةٍ شعرته حينها مريحاً بشكلٍ مزعج!

وفي الصباح التالي أخذني الخادم إلى غرفة الطّعام فحييت كارلوت وشكرته بما صاغته روحي من عباراتٍ قاصرةٍ فأجابني مبتسماً:
- أرجوك!.. لا داعي لهذا!
وجلست لأفطر معه ومن كلامٍ إلى كلامٍ قلت له:
- سؤالٌ واحدٌ فقط.. سؤالٌ بقي في قلبي!
- اسأل!
- كيف كفلتني.. يعني ما دمت محكوماً عليّ بالإعدام؟
- إعدام؟!.. آآآ.. تقصد...
وانفجر ضاحكاً ثم قال:
- أذكر أنّي كتبت لك: "لو أخبرتك أن"... ولم أقل أنّني أخبرك بذلك على وجه التأكيد!

ثم نظر إلى عينيّ المخزيّتين وقال:
- على أيّة حالٍ كان مجرد أسلوب ولم يخطر لي أنّك قد تصدّق ذلك تماماً وخاصةً وأنّك سمعت القاضي بأذنيك!
- حسناً.. لم أصدّق في البداية ولكن غلب على ظنّي أنّك تعرف المستقبل كما حدث من قبل!
- لا يعلم الغيب إلا الله وما دام لم يخبرني فأنا لا أعلم بالتأكيد!

ثم وضع لقمةً في فمه وأردف:
- دعك من هذا!.. لقد أبدلك الله بالمشنقة الحياة.. والبيض المقلي.. هيا كل يا صديقي كل!

وابتسم لي ببشاشةٍ فنظرت إليه مبتسماً وملء قلبي الدهشة؛ أهذا كارلوت الذي كنت أحسبه مختلّاً أو مريضاً؟!.. لقد بدا مختلفاً تماماً الآن؛ إنّه مرحٌ وذكيٌّ سريع البديهة تلمح تميّزه من أول نظرة!.. ربّما كان والداه محقّان عندما احترق قلبهما وهما يظنّان أنّهما خسراه ولم يكونا يدريان أنّ حبّهما المفرط له هو من حطّمه وجعله لسنين إنساناً كئيباً حزيناً!

وبعد أن أنهينا الطّعام وجلسنا قال لي:
- والآن ما خطتك؟
- ليس عندي خطّة أكثر من الاستمتاع بحريتي..
- معك حق!.. ولكنني لو كنت مكانك لبادرت بإعادة المال المسروق إلى أصحابه لأريح ضميري.. أعني ما دمت قد عزمت على أن تبيض صحيفتك كما أخبرتني..
- ليس الآن.. إن الذي استطاع أن ينتظر أكثر من خمسة عشر سنة يستطيع أن ينتظر قليلاً..
- ولكنه عندما انتظر، انتظر رغماً عن أنفه.. انتظر والحرقة تحرق قلبه..

وسكت كارلوت قليلاً ليعمل بعض المؤثّرات بصوته وعينيه ثم أردف:
- مع أنّ الصائغ العجوز نفسه قد توفّي إلا أنّ الكارثة التي أوقعتَها بهم قد دمّرتهم فالذي سمعته عنهم منذ شهرٍ أنهم يتشحّطون في

ديونهم.. ولا أخفيك أنّ هذا ما دفعني للإسراع في معاملتك..

وفاجأني ذلك فقلت:
- ولكن.. كيف أحضر المال؟!.. المال في أمريكا وأنا هنا.. لا أظنّ أن الكفالة تسمح لي بالخروج من البلاد..
- أليس لك وكيل أو محامي مثلاً؟
- مضى على الأمر عشر سنوات!
- هل أفهم أنك تحاول التهرّب بعد كلّ هذا؟
وسكتّ قليلاً ثم أجبت بإنزعاج:
- حسناً.. افهم ذلك.. هل تظنّني أبلهاً حتى أصرّح لهم بهويتي حتّى يرفعوا أمري إلى المحكمة لتحكم عليّ بعشر سنواتٍ أخرى مثلاً؟!
- بل أظنّك أبلهاً لأنّك تنتظرهم حتّى يرفعوا أمرك إلى الله فيحكم عليك بالمكوث في جهنّم الفترة التي الله أعلم بها!

وبهتتني بسرعة بديهته فأجبته مستسلماً:
- حسناً.. سأنشئ حساباً لي في المصرف هنا وأراسل وكيلي في أمريكا كي يحوّل حسابي المصرفيّ هناك إلى هنا..
- وماذا عن البيت أو الأملاك العقاريّة الأخرى؟
- وما علاقة أولئك؟!.. أنا سأعيد المبلغ الذي سرقته.. ثمن المجوهرات بالأحرى..
- والباقي؟
- الباقي عرق جبيني!
- ولماذا لم تعرق قبل أن تسرق؟
- لأنّ.. لأنّني... حسناً.... لأنّني كنت بحاجةٍ إلى دعامةٍ أستند عليها!
- ألم يكن من الممكن أن يستند ابنه إلى تلك الدعامة ويحصد تلك

الثروة؟!.. هل سمح لك صاحب المال بأن تستفيد منه على حسابه؟.. على الأقل عليك أن تدفع باقي المال تعويضاً لهم عن اللّحظات العصيبة التي تسببت لهم بها.. أليس ما أقوله صحيحاً؟

- صحيحٌ لدرجةٍ مزعجة!

فضحك وقال:

- تعجبني صراحتك!.. ويعجبني الصّدق أكثر!.. ثمّ دعك من هذا.. مضى عليك عشر سنينٍ تعيش بدون الدنيا فلماذا عدت للتفكير فيها الآن؟!

- طبعاً أنت تقول ذلك!.. فتحت عينيك ونشأت والدّنيا في خدمتك؛ لم ترد كلمة فقرٍ أو حاجةٍ في قاموسك ولا لمرّةٍ واحدة.. أمّا أنا فقد نشأت فقيراً والآن إذا ما سلّمت هذه الأموال فسأعود فقيراً بل معدماً أيضاً؛ فمن سيرضى باستعمال خرّيج سجونٍ لا يزال حتّى في الكفالة؟!!

- ما دامت كلمتا الفقر والحاجة قد وردتا في قاموسك وفهمت ألمهما فلم رضيت بهما لمن لا ذنب له؟! ومن جهتي أنا أعرف من يكفيك همّ هاتين الكلمتين بإذن اللّه!

قلت ذلك ببساطة بينما أجبتك والألم يعتصر من عينيّ:

- من؟!

- أنا!

- أنت؟!

- أجل!.. أريدك أن تعمل عندي إن لم يكن عندك مشكلة!

ونظرت إليه مستغرباً فقال متصنّعاً الجديّة:

- لم تستغرب؟!.. المسألة تشبه إلى حدٍ كبيرٍ مسألة الأواني

المستطرقة إن كنت قد سمعت بها..
- تلك التي تعتمد على توازي الأواني التي تحوي ماء؟
- نعم.. وبمجرد أن تتوازى فإن الماء يعدّل نفسه حتى يغدو في كلّ الأواني متساوياً..
- وما علاقة هذا بنقاشنا؟
- علاقته أنّنا نحن البشر علينا أن نكون هكذا.. فلو أنّنا كما أمرنا اللّه يعطي الغنيّ للفقير مثل ما تعطي الأواني لبعضها لكنّا جميعاً سواسية ليس لأحدٍ أن يتحجّج بالفقر ليسرق!

ونظر إليّ لائماً بينما غضضت بصري ثمّ أردف:
- ومن جهتي وبعد أن ورثت المال من أبي منذ شهرين تقريباً سأبدأ بنفسي وأرجو أن تكمل أنت من بعدي وهكذا..
- أكمل أنا؟!.. وكيف وأنا الفقير في هذه السلسلة؟!
- أليس هناك أفقر منك؟.. يتيمٌ أو يتيمةٌ لا يستطيعان العمل -على عكسك- مثلاً!

فسكتّ مفحماً.. ثمّ غيّرت الحديث قائلاً:
- تعني أن أعمل على ظهر سفينتكم الضخمة؟
- لا!.. تلك بعتها..
- بعتها؟!.. بعت تلك السّفينة الضّخمة بكلّ أثاثها الفاخر وغرفها البازخة؟!.. إنّها تساوي ملايين الجنيهات!
- طبعاً بعتها!.. فأنا لا أريد عملاً فيه محرّماتٌ كذلك العمل..
- ولكن!.. هذا تبديدٌ للمال.. أبوك قضى عمره وهو يضع جنيهاً على جنيهٍ حتّى استطاع شرائها وأنت تستهتر بها بكلّ تلك البساطة والتّبذير؟!

فنظر إليّ شزراً ثم قال:
- لنفترض أنّك دخلت يوماً إلى مطبخك فلم تجد فيه طعاماً وعندما فتحت الثلّاجة وجدت قطعة لحمٍ كبيرةً ولم يكن فيها عيبٌ سوى أنّها عفنةٌ جدّاً.. فماذا كنت ستفعل؟
- طبعاً سأرميها وأذهب لشراء طعامٍ آخر..
- كالخبز مثلاً؟
- كالخبز..
فوجّه إليّ نظراته باتّهامٍ وقال:
- تترك اللّحم وتأكل الخبز؟!
فنظرت إليه متجاهلاً ما يرمي إليه وقلت:
- ومن هذا الأبله الذي يأكل لحماً عفناً؟!.. حتّى لو هدأ وجع الجوع فسيبدأ وجع المغص!

فاستند إلى كرسيّه وقال:
- وهكذا فكّرت أنا!.. والآن لنفترض أنّ مجموعةً من الكلاب رأتك وأنت ترمي قطعة اللّحم الكبيرة العفنة.. تراها ماذا كانت ستقول؟!
فضحكت وقلت ببساطةٍ:
- لن تقول شيئاً.. ستبدأ بالتهامها على الفور!

ولكنّني أدركت ما يرمي إليه فتحرّك الغضب في صدري ولكنّه سبقني وقال:
- بلى ستقول!.. ستقول: يا لهذا الإنسان الأبله؛ كيف يرمي قطعة لحمٍ كبيرةٍ؟!.. ولكنّ تلك الكلاب لا يعلمون أنّهم هم الأدنى ولو كانوا بذكاء الإنسان وحكمته لما أقدموا على ذلك!

فنهضت غاضباً وصحت:
- هذا كثيرٌ يا كارلوت!.. لن أسكت لك على هذه!
- على ماذا؟
- أتظنّني لم أفهم أنّك ترمي إلى تشبيهي بالكلاب باعتبار أنّ قطعة اللّحم العفنة هي المال الحرام.. بينما تمدح نفسك على اعتبار أنّك أنت الحكيم الذي رمى اللّحم العفن!.. يالك من مغرور!
- أنا لست مغروراً وليس رمي الأشياء العفنة هو مدحٌ للنّفس إذا كان الرّامي إنساناً عاقلاً بطبيعة الحال!.. صح؟!

وسكت قليلاً يحاول تهدئتي ببسمته ثمّ قال:
- أنا ضربت لك المثال.. وأنت إنّما شعرته شتيمةً لأنّك تعلم في باطن نفسك أنّك تأكل اللّحم العفن أو المال الحرام بمعنىً آخر.. أمّا لو كنت بريئاً من ذلك فلو رويت لك المثال ألف مرةٍ فستضحك معي..!

فجلست أختنق بالإهانة فكفالته إيّاي تفرض عليّ احترامه بطبيعة الحال.. بينما أردف:
- أمّا إذا افترضنا أنّني ضربت هذا المثال للكلب الذي أكل من اللّحم العفن.. أتدري ماذا كان سيجيبني؟!.. سيقول: كن إنسان ولأكن حيوان؛ المهم أن أكون مليء البطن شبعان!.. ولذلك كما ترى؛ اللّحم العفن نفسه إلّا أنّ رُقِيّ العقول مختلف!

وضحك بينما أبديت له أنّ كلامه لم يعجبني مطلقاً فغيّر الموضوع وقال:
- المهم أنّني قد اشتريت بنصف ثمنها سفينتين تجارّيتين وأريد أن أتاجر بهما إلا أنه ينقصني تاجرٌ مسلمٌ أثق به.. وبما أنّ هذا نادرٌ في

هذه البلاد فأنا أتمسّك بك وخاصّةً أنّك كما علمتُ تاجرٌ ناجحٌ بدليل أنّك نجحت منذ خمس عشر سنة.. فما رأيك إذاً؟
- يعني في النّهاية أنّك تقول لي: أعد المال يعني أعد المال!

فضحك وأجاب:
- أنا أقول لك ذلك حقّاً ولكن ذلك لا ينفي أنّني جادٌ فيما اقترحته عليك.. فما قولك؟
- قولي أنّني أحمقٌ إن رفضت فرصةً كهذه رغم أنّني انزعجت جدّاً من إهانتك..
- ما دمت ستعيد المال فالإهانة ليست لك فتعال واتكّأ معنا على آرائك مخدومي الدّنيا بدلاً من الاصطفاف في صفوف خدمها..
فنظر إليّ وقد هدأت نظراتي فقال ممازحاً:
-وما دمنا قد اتفقنا فسأقول لك الآن بصراحةٍ: أعد المال يعني أعد المال!
- توقّعت ذلك!

وضحكنا بعد أن استسلمت في النهاية بعد كلّ ذلك النّقاش وما كان استسلامي بدايةً ونهايةً إلّا نتيجةً لإسلامي!
وقبل ذلك طبعاً لم أكن لأستسلم بتلك البساطة له ولا لغيره في مسألةٍ تمسّ المال كهذه المسألة.. ولكنّني كنت فعلاً أصبحت أحسب للموت وما بعده حساباً.. والأدهى من ذلك أنني بتّ أخاف أن أحرم راحة الصلاة؛ تلك التي تأتي بترك الدنيا المحرّمة..

وهكذا بعد أيّام جاء وكيلي من أمريكا -بناءً على استدعائي له- ليتأكّد من شخصيّتي.. وبعد أن أخذ أوراقاً وقّعتها وبصمت عليها أتمّ

تحويل الأموال إليّ وبدأت محنتي في مجاهدة نفسي لأعيدها إلى أصحابها..

ولكن لم يكن أمامي خيارٌ الرّجعة وكارلوت يراقبني ويلاحقني وخاصةً عندما قال لي:
- ستذهب الليلة إلى بيت الصّائغ؟
- الليلة؟!.. حسناً.. لم أقرّر بعد..
- لديّ حلٌّ حتّى لا تصارحهم بهويتك!
- هات ما لديك..
- انقل المال إلى حسابي وأنا سأذهب معك اللّيلة وأوهمهم أنّني ووالدي كنّا نبحث عن السّارق منذ ذلك الوقت وقد استطعت أخيراً تخليص المال منه وأعطيهم المال.. ما رأيك؟
- وما دوري أنا إذاً؟!.. لا داعي لذهابي..
- كفاك تهرّباً من المسؤوليّة!.. إذا لم تذهب فلن أذهب..
- ولم هذا الضّغط؟!
- لأنك لو لم ترد أن تخجل فلم سرقت إذاً؟!.. ما دمت قد سرقت فلا بدّ لك من الخجل!

وهكذا لم أجد بدّاً من كارلوت ولا من الذهاب.. فانطلقنا إلى حيٍّ فقيرٍ من أحياء المدينة ومن ثَمّ إلى بيتٍ قديمٍ خربٍ فقلت مستغرباً:
- ألهذه الدرجة ساءت أحوالهم؟!
- ولم تظننّي مصرّاً ومستعجلاً هكذا؟!.. هيّا اطرق الباب!

فطرقت الباب فخرج لي شابٌ بثيابٍ مهترئةٍ ووجهٍ كان يلوح عليه النّبل كما تذكّرته.. فحيّيته وقلت مشيراً إلى كارلوت:

- السّيد جاك كارلوت وقد جاء ليكلمكم في أمرٍ يهمّكم..
- تفضّلوا..

ودخلنا إلى غرفةٍ خاليةٍ إلّا من بعض الأثاث العتيق.. وبدأ كارلوت الحديث متصنّعاً التّفاعل والحزن:
- لكم يؤسفنا -نحن شركة كارلوت للرحلات السياحيّة التّرفيهيّة- أن تسبّب لكم إحدى رحلاتنا هذه المصائب.. وانطلاقاً من إيماننا أنّ اللّه -ولا بدّ- رادٌّ الحقّ إلى أهله عاجلاً في الدّنيا أو آجلاً بعد الموت فقد بقينا وراء هذا اللص الخمسة عشر سنةً الماضية حتّى كتب اللّه لنا النّصر واستنزفنا ما في يديه من أموال حتّى يسعدنا اليوم......

وسكت كارلوت يأخذ نفساً ليثير العائلة المسكينة بأسلوبه وقد اشتعلت أعينهم وهم يترقّبون هذه الجملة.. وأكمل أخيراً:
- إنّه ليسرّني أن تعلموا أنّي قد جئت لأزفّ إليكم أموالكم بأرباحها خلال الخمس عشر سنةٍ الماضية!

وهتف الجميع مرةً واحدةً مزغردين وصاحوا صيحات الفرح وأخذوا يتعانقون باكين من شدّة الفرح ويهنّؤون بعضهم بينما نظر إليّ كارلوت وفي عينيه العبر فغضضت بصري وقد غصّ حلقي من شدّة خجلي وضميري يصيح ويتلوّى؛ واسوأتاه.. أنا من سبّب لهم كلّ تلك التعاسة.. واسوأتاه!

وشكروا جميعاً كارلوت وقبّل كبيرهم رأسه عندما سلّمهم الأوراق بينما غنّت له صغيرتهم وغاص البيت في موجةٍ من الفرح والبهجة وخرجنا من عندهم كأنّما خرجنا من عرس!

وقال لي كارلوت:
- أيسرّ ضميرك أن تحرمهم من كل تلك السّعادة يا صديقي؟!
وسكتّ خجلاناً بينما أردف:
- الآن صارت بدايتك الجديدة صحيحةً؛ بلا مظالم!

فابتسمت له وأجبت:
- وصار عليك أن تعطيني عملي؛ فقد أصبحت الآن صفراً بكلّ معنى الكلمة!
فضحك وقال:
- إذاً هيّا بنا إلى الميناء!
- ولكن!. ليس إلى هذه الدرجة من السرعة.. إلى الصّباح!

وفي الصّباح أراني سفينتيه التّجاريّتين وعرّفني على تلك التّجارة و التّجّار وبدأت عملي من يومها بعد أن وقّعنا أوراق العمل وأبرمنا العقد وقد رتّب لي راتباً ممتازاً كأيّ وكيل عملٍ في مثل منصبي وعندها أقول أنّني بدأت حياةً شريفةً وتركت الإجرام والجريمة إلى غير ما رجعة إن شاء الله وتفضّل!

ومرّت الشّهور وأنا أرى أرباحه المستفيضة بصفتي وكيل أعماله مما لفت نظري وشدّ انتباهي فتذكّرت أقواله عن أنّه سيبدأ بنفسه أولاً وقرّرت اختباره بعد أن كثر المال في يديه.. فجئته في أحد الأيام من أجل العمل وعندما انتهينا قلت له متصنّعاً الجديّة والحزن:

- البارحة.. سمعت عن أرملة جاري المسكينة.. وقبل البارحة سمعت عن أيتام شارع جونسان.. وفي كل يوم نسمع المزيد من المآسي

والأحزان.. ولا يجد أولئك المساكين من يساعدهم.. فما رأيك يا سيدي لو أقمت جمعيةً خيريّة بما أنّك لديك القدرة على ذلك؟
- جمعيّة؟!

قالها وهو يفرك ذقنه بيده ويفكّر ثمّ أجاب:
- يا لها من فكرة!.. كيف لم تخطر على بالي؟!

ثم سكت قليلاً وقد زادت ابتسامته عرضاً وقال:
- نعم.. ستكون جمعيةً إسلاميّةً وبذا سيأتي المسلمون المحتاجون في البلاد أو يتّصلون بي بدون أن أبحث عنهم..!

وأخذ يحرّك عجلات كرسيّه المتحرّك جيئةً وذهاباً بحماسٍ وأردف:
- نعم.. نعم.. ويكون لها نشاطاتٌ للدّعوة.. وإذا أسلم النّاس بسببي فحينها......

وأخذ نفساً بسعادةً وصاح:
- ....سأكون من أسعد النّاس!.. سأفتح قلوب النّاس بالرّحمة.. أجل.. إن شاء الله.. أجل!

والتفت إليّ في دهشتي وقال:
- فكرةٌ مدهشةٌ يا صديقي!.. أتدري؟!.. بهذه الفكرة العظيمة التي أعطيتني إيّاها فلك عندي هديّة.. منذ الآن سأضاعف لك راتبك!

فضحكنا ثمّ أجبت:
- لا داعي لذلك ؛راتبي ممتاز.. أفضّل أن تدّخر المال للجمعيّة!

فدُهش لجوابي الغير متوقّع وفرح به فرحاً عظيماً وقال:
- أتدري يا صديقي العزيز؟!.. أنت لم تصبح حيّاً فقط بل أصبحت توزّع الحياة على النّاس!.. كنت مستعدّاً لأشتري لك قناعتك هذه بمالي كلّه!
- وقد وهبني اللّه إيّاها في السّجن دون ما مقابل!.. صحيحٌ أنّني ضعفت في البداية عندما خرجت من السّجن وأغرتني الدّنيا بعدما فوجئت بالأمل ولكنّني بعون اللّه ثمّ بعونك أجد نفسي أقوى الآن!.. فأرجو أن تسمح لي أن أساعدك في جمعيّتك هذه؟
- بالطّبع أسمح لك بالطّبع!
- وأن أسمّيها أيضاً؟
- وهل عندك اسمٌ جيّد؟
- اسمع: " نورٌ بين النّاس"..
ففكّر قليلاً ثم قال:
- تعني الآية القرآنيّة ﴿أفمن كان ميّتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في النّاس...﴾ ؟
- هي بالضبط!.. من كثرة ما قلت لي "ميّت "و"حيّ" صرت أشعر أنّ اللّه يقصدني بتلك الآية!
فضحك كارلوت من أعماق قلبه وقرّب كرسيّه إليّ وعانقني قائلاً:
- إذاً هذا اسمٌ مشتركٌ فيما بيني وبينك يا أخي وهو حقاً يعجبني!

وهذه كانت قصّة بداية جمعيّتنا "نورٌ بين النّاس" التّي خلال سنتين ازدهرت ليس أيّما ازدهارٍ وقد أنفق كارلوت جلّ ماله في مساعدة النّاس حتّى أنّه باع بيته الفاخر واشترى به مقرّ الجمعية الكبير وحتّى أنّه تخلّى عن الخادم وصار يحرّك كرسيّه بنفسه وجعل من مكتبته الكبيرة التي جمعها وهو صغير مكتبةً عامّة.. باختصار بذل

مهجه في سبيل نصرة دينه..!

وفي أحد الأيّام بعد مرور ثلاث سنواتٍ تقريباً على إنشاء الجمعيّة وبينما كنت في مكتب الجمعيّة سمعت صوت ضوضاءٍ وحركةٍ سريعةٍ في الخارج وسرعان ما انفتح الباب ودخل كارلوت على كرسيّه مستعجلاً بانفعالٍ وقد فاضت أساريره بالسرور المطلق وكاد يصطدم بالمكتب كطفلٍ صغيرٍ يلعب بدراجته وهو يقول:

- السلام عليكم يا جيمس.. السلام عليكم!
- وعليكم السلام.. ما بك منفعلٌ ومغتبطٌ ومبتهجٌ ومسرورٌ وكأنّ النّاس كلّهم قد أسلموا على يديك؟!
- لا.. لا.. هذه الصّفات كلّها لا تكفي لوصف سعادتي.. أليس عندك صفاتٌ أخرى؟

فنهضت عن الكرسيّ وقد انفعلت وقلت:
- إذاً ما القصّة؟.. أخبرني لقد شوّقتني!
فضحك من قلبه وكلّما أراد أن يخبرني تأخذه الضّحكة ثم قال أخيراً:
- تخيّل!.. أمّي التي هي أمّي..
ونظر إليّ ضاحكاً وأردف:
- أتصدّق أنّها أسلمت؟!
- كذب!
- لا إنها الحقيقة.. الحقيقة!
- وكيف بعد أكثر من عشرين سنةٍ من محاولاتك إقناعها؟
وضحك بفرحٍ وقال:
- الذنب من الأصل ذنب الدّنيا.. والآن بعد أن تخلّصنا من السّفينة

الضّخمة والسيّارة الفاخرة والبيت الكبير الفاره عادت إليها فطرتها وأعجبها أن تساعد النّاس بعد أن مضى عليها ثلاث سنواتٍ تأتي إلى الجمعيّة وبما أنّها طيّبةٌ فقد هداها اللّه للإسلام.. هداها والحمد في هذا كلّه للّه الكريم!

ثمّ أخذ نفساً كبيراً وقال بهمّةٍ:
- يجب أن أفي بقسمي الآن!
- عن أن تفرح طرفي المدينة؟
- أجل!
- ولكنّك أنفقت مالك وفات الأوان.. عليك أن تنتظر موسم التّجارة القادم..
- وكم يحتاج؟
- دعني أفكّر.. سيحتاج.. سيحتاج.. سيحتاج ثلاثة أشهرٍ تقريباً حتّى يكون المال بين يديك..
- هذا كثير.. يكون أجمل عندما أفعل ذلك والخبر لا يزال طازجاً!
- وماذا ستفعل إذاً؟
- سأستدين!
- تستدين؟!.. وماذا لو لم تنجح التّجارة؟.. دعنا في المضمون!
- لا.. لا.. لا أستطيع.. ربّما إن لم أفعل شيئاً انفجرت على كرسيَّ هذا يا جيمس!
فتنهدتّ وقلت:
- ولكنّي قمت بواجبي كوكيل أعمالك وحذّرتك.. ومن تجربتي السّابقة أقول لك لا تجزم بالمستقبل ولا تقل أنّ الفقر بات مستحيلاً.. فلا أحد يدري ما قد يحدث!

ولكنّه لم يستمع إليّ فقد كان الفرح قد أخذ جزءاً وافراً من عقله.. واستدان مبلغاً ضخماً وأقام طعاماً مجانيّاً في شتّى مساجد وجمعيّات البلاد للمسلمين وغير المسلمين برسم إسلام أمّه التي فرحت بذلك جداً في الواقع.. والحقيقة أنّ هذا جلب الكثيرين لجمعيّتنا فتحركّت بشدة وكنّا جِدّ سعداء بذلك إلى أن مضت الثلاثة شهور ووقع المحظور...

نعم.. كسدت التّجارة في ذلك الوقت ووقع كارلوت المسكين في الدّيون وزاد الطّين بلّةً أنّ أحد التّجار المحتالين احتال على الأوراق ونسب أحد السّفينتين إليه.. وبعد أيّامٍ في المحاكم خرجنا منها خاسرين...

أمّا المصيبة الكبرى على الإطلاق والتّي صدمتني وأهوت بي إلى ضميري لينهشني ويمزّقني.. فقد علمت بها عندما افتقدته أحد الأيام في الجمعيّة فظننته مكتئباً ولكن غيابه طال؛ الأيام ذات العدد..
ومهما حاولت الاتصال به فقد كنت أفشل وكنت أطرق باب بيته فلا أجد أحداً..حتّى..حتّى طرقته مرةً بإصرارٍ ففتحت أمّه العجوز الباب وقد تلفّحت بالسّواد فسألتها عنه فأجابت باكيةً:
- إنّه في المشفى!
- المشفى؟!
- طبعاً وقد ثار عليه السّرطان الذي جلبته له!
- أنا جلبت له سرطاناً؟!
- أجل عندما رميته في البحر وكاد يموت تحرّك السرطان في خصره.. وقد مضى عليه ثمانية عشر سنة وهو يقاسي هذا المرض بسببك!

وصدمت الصّدمة التّي شلّتني وكرّرت بدون وعي:
- سرطان.. بسببي!!
ثم نفضت رأسي وغطّيت وجهي وسألتها:
- ولكن.. لماذا الآن؟
- لأنّه بعدما غرق في الدّيون لم يعد بإمكانه أن يشتري الأدوية الغالية الثّمن و...
وفاضت دموعها وهي تقول:
- لقد تدهورت حالته.. تدهورت.. أتعني ماذا يعني تدهورت؟!

وبدأت العجوز بالنّحيب بينما ركضت لا ألوي على شيءٍ وقد تسرّعت أنفاسي واقتحمت المشفى وسألت عن غرفته وحاولت الدّخول لولا أنّ الطبيب منعني فانتظرت حتّى سمحوا لي ثم دخلت والدموع تترقرق في عيني فوجدته نحيلاً جداً وقد أثّر المرض والألم على وجهه أثراً لا يخفى.. فانكببت عليه أبكي وأقول له:
- ماذا حدث؟!.. ماذا فعلت حتّى تأتيك المصائب كلّها ضربةً واحدة؟!.. أنت الذي جلبت السّعادة لي وللكثيرين.. أنت الذي..
وأخذني البكاء بينما تحامل على نفسه وعانقني قائلاً:
- على العكس.. أنا سعيدٌ لأنّ اللّه أخرج الدّنيا منّي قبل أن أخرج منها.. هذا يفعله اللّه مع من يحبّ.. يا جيمس.. فما أسعدني إذ أنعم اللّه عليّ بهذا!
- ولكنّني لا أستطيع أن أفارقك!.. لا أستطيع تحمّل فكرة أنّني قتلتك في النّهاية.. لاا..لاااا....

وطمرت نفسي بين يديّ على الفراش وأنا أنتحب بينما قال لي

مواسياً:

- لا بأس عليك.. الإسلام يجبّ ما قبله.. وقد سامحتك.. من قلبي!

ولكنّني لم أستطع أن أتوقّف عن البكاء فأردف بصوتٍ متقطّعٍ :

- لقد أوصيت أحد أصدقائي من المسلمين أن يتولّى كفالتك بدلاً عنّي.. وكلّ ما أطلبه منك يا صديقي أن تقوم بالجمعيّة من بعدي وتكمل مسيرتي وترفع لواء الإسلام عالياً.. أرجوك ألّا تنسى وصيّتي.. أرجوك!

قالها من بين أوجاعه وتهالك على السرير متألّماً ولم يستطع المسكين أن يوقف صرخاته ودخل الطبيب على صوته و......

قطرت دموعي على عشب قبره وقد وقفت أقرأ له سورة الفاتحة بعد مضيّ شهرٍ على جنازته العظيمة التي شهدتها آلاف الرؤوس البرّة والفاجرة..

لقد غادرتني يا صديقي.. غادرتني يا حبيبي.. غادرتني وأخذت قلبي معك.. وأخذت أتذكّر كلماته وترنّ في أذنيّ ضحكاته.. إنّ الدنيا لا تبقى لأحد.. ولا لحبيبٍ خيّرٍ طيّب القلب.. ولا لرجلٍ طيّب الذّكر شيّعه عشرات الحشود بآلاف الدّموع... لقد متّ وبقيت حيّاً في قلوبنا.. أنت فعلاً الميّت الحيّ!

ومضيت أتنهّد وأدوس أحزاني بقلبي الباكي.. ودخلت مقرّ الجمعيّة أشيّعه هو الآخر لأنّه كان مرهوناً هو وباقي أملاك كارلوت بتلك الدّيون وبعد موت صاحبهم كان عليّ أن أسلّمهم..

وجلست أنهي الأوراق عندما فُتح الباب فجأةً ودخل شابٌّ بهندامٍ حسن وتقدّم إلى المكتب قائلاً:

- صباح الخير أيّها اللّص!

- أنا لست...

وأدركت أنّه ابن الصّائغ الذي سرقته قبل ثمانية عشر سنة فسكتّ وأحنيت رأسي وأنا أتساءل كيف عرف في النّهاية أنّني أنا اللّص؟!

فأجابني وكأنّما سمعني:

- فاجأتك أليس كذلك؟!.. تظنّ نفسك لا زلت مخبّأً!.. بعد أن خرجت أنت وكارلوت في ذلك اليوم وذهبت عنّي صدمة الفرح أدركت أنّ كارلوت بطبيعة الحال يعلم هوية اللّص..

فذهبت إليه في بيته وسألته، ولكنّه دفع لي مبلغاً كبيراً مقابل أن أتجاوز عنك بعدما زعم أنّك قد تبت وقررت أن تستقيم بدليل أنّك جئت بيتي بنفسك وسلّمت المال بأرباحه الطّائلة كما أنّك قضيت عشر سنواتٍ في السّجن.. ولذلك سكتُّ عنك ولكن ذلك لا ينفي أنّك لا زلت اللّص!

وصوّب الشّاب إليّ نظراتٍ حادّةٍ بينما أرخيت بصري وسكتّ ملجماً بذلّ الذّنب بينما أردف:

- أنت الآن مدير جمعيّة كارلوت.. أليس كذلك؟

- كنت.. ولكن الآن ذهب كلّ شيءٍ.. إنّ الدّيون أطاحت بكلّ شيء..

- ليس إذا دفع أحدهم تلك الدّيون!

فرفعت بصري مدهوشاً بينما أجاب:

- وأيضاً سألت كارلوت يومها عن أكثر شيءٍ يسعده أن أفعله له ردّاً

لجميله العظيم في إنقاذي وعائلتي من براثن الفقر والدّيون..
فأجابني كارلوت حينها أنّه لن يسعده شيءٌ كما يسعده أن أسلم..
ولكن بما أنّ طلبه كان غريباً فلم أنفّذه.. أما الآن...

وسكت الشّاب قليلاً يقرأ عينَيّ ثم أردف:
- أما الآن فقد وجدت الفرصة لردّ جميله بأن أدفع جمعيّته ودِينَه إلى الأعلى وإن لم أتبعه!

فانتفضت واقفاً من المفاجأة وصحت:
- مدهش!.. لقد كانت وصيّته الأخيرة التي أكّد عليها هي هذه الجمعيّة.. أنت فعلاً تسعده لو فعلت ذلك!!



فابتسم الشّاب بينما حمدت الله من كلّ قلبي وخاصّةً أنّه جعل حتّى من خطئي السّابق مع الصائغ خيراً وفرَجاً..

وكما قال النّبي الأعظم: "إنّ الله ينصر هذا الدّين بالبرّ والفاجر" فقد دفع هذا الرّجل الدّيون كلّها وأعطانا رأس مالٍ لنبدأ من جديدٍ وبذلك أعاد الله إلى جمعيّتنا قوّتها وازدهرت وتتطاير شذا عبيرها خلال العشرين سنةً الماضية بعد وفاة كارلوت إلى أنحاء البلاد..

فها نحن نتشرّف باستقبال العديد من المسلمين الجدد كلّ شهر ونوّزع مساعداتٍ بآلاف الجنيهات راجين القبول من مولانا ربّنا وربّ السّماوات!""

فأجاب الصّحفي:
- شكراً لكم يا سيد جيمس شارل مدير جمعيّة "نورٌ بين النّاس" الخيريّة الإسلاميّة.. شاكرين لكم جهودكم المضيئة وراجين لكم المزيد من النّجاح.. فهل عندكم ما تقولونه ختاماً؟

- نعم.. في الختام، نختم بما هو أطيب من المسك والزّعفران؛ قول ربّنا الرحمن: ﴿إنّمَا يُوفّى الصّابِرُونَ أجْرَهمْ بِغِيْرِ حِسَابٍ﴾

.....تمّت بفضل الله العظيم.....

مؤلفات أخرى للكاتب:

